حازم زكي نسيبة في كتابه «المقادسة: ذاكرة حية»:

رؤية للمدينة المتغيرة وافكار من موقع مسؤول عن المنطقة في زمن الحرب الباردة بين الاشقاء

ابراهيم درويش *

■ في مونولوج طويل «جداري» كتب المسرحي البريطاني المعروف سيرة ذاتية للمكان الفلسطيني المتغير. وجاءت الرحلة او المونولوج في مقال مطول نشر الشهر الماضي في عدد نيسان (ابريل) 2009 من الشهرية الامريكية المعروفة «نيويورك ريفيو اوف بوكس». المقال وان تركز على محاولة فهم الجدار واشكالية الثقوق لدى المحلل النيويورك، وسحريته من الوضع القائم الا انه ملاحظة هامة على الطريقة التي تتغير فيها مدينة القدس، العاصمة الروحية التي يقول ان شيئا ما يراه غريبا في المدينة من اثر الجدار. فهو يرى ان المدينة تفقد روحها ويظل عند اسرائيليين قابلهم مثقلون بالضرورة حسهم بعدم الثقة بالمستقبل ويقارن بين حس القدس المستقبل لدى البريطاني الذي يخطط مثلا لعشرين سنة قادمة مع حس التشظي لدى الاسرائيلي الذي يخرج قليلة شوفان من حديث من هذا النوع. ويظل عن احدهم وهو مثقف يعيش في القدس معلقا على الجدار «العنصري» بانه تعبير عن اسرائيل التي فقدت حسها بالمستقبل. تجليات الحصار هو تعبير عن «رواية» هي الارض التي تراها اسرائيل «عاصمة ابدية غير مقسمة لها» والفلسطينيون عاصمة لدولتهم المستقلة التي تتحول يوما بعد يوم الى ارخبيل من الضيافات المتفرقة بعد الحس الفلسطيني المتمسك بأمل عودتها اليه مثلما ستعود فلسطين. ويحاول الفلسطينيون اينما كانوا وفي اي زمن تأكيد ثقتهم بان الزمن في صالحهم وانها ستعود.

مدينة في خطر

المهم في الامر ان القدس في وضعها الحالي في خطر وهي في رؤية الثقافة العربية، عاصمة الثقافة العربية لعام 2009. ـ ايما كان الامر وايا كان موقف الساخرين والداعمين للفكرة فالقدس الحقيقية تصغر يوما بعد يوم مثلما يتضاءل المكان الفلسطيني وفي «الليلة الظلماء» التي يفتقد فيها القمر يعود الواحد منها «يفتش في الدفاتر القديمة» واجمل هذه الدفاتر هي التي كتبها فلسطينيون وعرب عن مدينتهم.

الساكيني وعنبرة

ومن يفتش في دفاتره القديمة يبحث عن اجملها وكاتب هذه السطور يحن دائما الى الرموز الاولى من حركة تكوين الادب الفلسطيني في نهايات القرن التاسع عشر والعقود الاولى من القرن العشرين حتى الفاجعة، فهو جبل عبر عن تمسكه بعروبته وعروبة فلسطين وتمسكه بالارض ولكنه كان اعزل الا من الكلمة الى سجلها وهضى في الطريق الطويل. وفي الايام الماضية عاد كاتب هذه السطور لعدد من المذكرات التي كتبت عن فلسطين قبل النكبة ومنها ذكريات عنبرة سلام الخالدي «رحلة الذكريات بين فلسطين ولبنان» وهي وان كانت عن بيروت في نهايات العهد العثماني وبداية القرن العشرين الا انها تسجل جزءا من تاريخ القدس في العشرينات من القرن الماضي وتفاعلات الهم الوطني والحركات الوطنية والثقافية التي ولدت اثناء الكفاح الفلسطيني. لكن يوميات خليل الساكيني، بخاصة انها بدايته، تظل تصويرا جميلا عن الحياة في فلسطين البداية في هدفه للكتابة عن القدس التي عايش اغلب هموم قومها وتمسكت بهويتها العثمانية والعربية والفلسطينية حتى النهاية، وما يهم في هذا الامر هو ان الساكيني عندما سقطت القدس عام 1917 بيد البريطانيين ودخول الجنرال اللنبي كان في دمشق اسيرا لدى العثمانيين الذين جروه مع عدد كبير من المعتقلين لانه اوى يهوديا كان هاربا ويكتب في يومياته اسفه على نهاية الدولة العثمانية لكنه يعبر عن ارتياحه لعدم وجود جيش في القدس حالة دخول الجيش المنتصر اليها لانه كان يكره المتافقين ومن يغيرون الوانهم واعلامهم بحسب تغير الوقت والمنتصر، لكن اهم ما في يومياته في هذه الفترة هو حنينه الدائم للقدس ومقارنته بين جمال دمشق وما حولها وجمال القدس الذي لا يعادله اي جمال وكيف انها تظل جوهرة المدن.

«اقوا ما كتبه في 2/15/ 1918:

زرت اليوم بعد الظهر انا وصديقي الابر رستم بك حيدر الدكتور سيور وامرأته في الصالحية وتناولنا الشاي..

وبعد ان تناولنا الشاي خرجت مع رستم بك ومشينا على طريق الصالحية حتى تجاوزنا منازلها ومن هناك انبسط امامنا منظر دمشق، وكانت الشمس قد آذنت بالغروب فكان المنظر بهيجا جدا. انا انني افضل مناظر القدس عليها ولا سيما اذا وقفت على طريق جبل الزيتون بالقرب من منزل الخالق فانك تطل هناك على جبال واودية ومنخفضات ومرتفعات تأخذ بمجامع القلوب، اذا في ربي ان اسكن دمشق فانى اختار منزلا في الصالحية لان ذلك اسكن قسمتي «دمشق اجمل اقسامها منظرا واجمعها للنشراح».. رجعت الى غرفتي وصدري مفعم بالانفعالات والعواطف والحنين الى احبائي والى بلادي ولكن الخيرة في الواقع ولا حول ولا قوة الا بالله».

كان الساكيني عقلية فذة وحرة ومن يقرأ مذكراته عن امريكا التي زارها في زمن الازمة الاقتصادية يجد مقارنة مع ما يحدث الان من ازمة عالمية هناك وهناك. الخالدي والساكيني لم يكونا وحدهما من كتب عن القدس فهناك بحر من الكلمات عنها وهمشيتها الدينية والسياسية والثقافية. لكن عندما كتبا عنها كانت القدس بلا منازع عاصمة فلسطين الثقافية والسياسية فيها تصنع القرارات و«الاولويات» وكانت القدس مركز الحداثة ومركز الحجيج.

المقادسة

هذه الامور عادت، حضرت او احضرت اثناء قراءة الكتاب الجديد الصادر عن دار «الرمال» للنشر في قبرص بعنوان «المقادسة: ذاكرة حية» للسياسي حازم زكي نسيبة، وفيه وهو السياسي الذي عمل في اكثر من موقع في الحكومة الاردنية وعاصر احداثا مهمة في المنطقة منذ النكبة وحتى تقاعده من العمل السياسي والدبلوماسي يقدم روايته او تكريائه التاريخي والتقليدي الذي يجعله الفلسطينيون ابناء المدينة او جوارها انتسابا بالولادة او تبركا بالولاء اليها، فالمقادسة الحنابلة من ابناء جبل نابلس حملوا الاسم معهم الى منافيهم في دمشق والصالحية هربا من عكس الاصلاحيين. وابناء القدس المولودون والمنتسبون اليها يؤكدون على الاسم ويقاتلونه. فهو اي حازم ابن عائلة من الاعيان والده زكي عبدالرحيم كان من اعيان مدينة القدس وعضوا في مجلسها البلدي ورئيسا لمحكمتها. وآل نسيبة هم من تشرفوا بحمل مفاتيح ابواب كنيسة القيامة، منذ العهد العمري او في رواية اخرى بعده بعد ان سلم السلطان المسلم صلاح الدين مفاتيحها للعائلة التزاما بالعهد العثماني وبداية القرن العشرين الا انها تسجل جزءا من تاريخ القدس في العشرينات من القرن الماضي وتفاعلات الهم الوطني والحركات الوطنية والثقافية التي ولدت اثناء الكفاح الفلسطيني. لكن يوميات خليل الساكيني، بخاصة انها بدايته، تظل تصويرا جميلا عن الحياة في فلسطين والقدس بالتحديد سجلتها عقلية فلسطينية فذة عاشت هموم قومها وتمسكت بهويتها العثمانية والعربية والفلسطينية حتى النهاية، وما يهم في هذا الامر هو ان الساكيني عندما سقطت القدس عام 1917 بيد البريطانيين ودخول الجنرال اللنبي كان في دمشق اسيرا لدى العثمانيين الذين جروه مع عدد كبير من المعتقلين لانه آوى يهوديا كان هاربا ويكتب في يومياته اسفه على نهاية الدولة العثمانية لكنه يعبر عن ارتياحه لعدم وجود جيش في القدس حالة دخول الجيش المنتصر اليها لانه كان يكره المتافقين ومن يغيرون الوانهم واعلامهم بحسب تغير الوقت والمنتصر، لكن اهم ما في يومياته في هذه الفترة هو حنينه الدائم للقدس ومقارنته بين جمال دمشق وما حولها وجمال القدس الذي لا يعادله اي جمال وكيف انها تظل جوهرة المدن.

«اقوا ما كتبه في 2/15/ 1918:

زرت اليوم بعد الظهر انا وصديقي الابر رستم بك حيدر الدكتور سيور وامرأته في الصالحية وتناولنا الشاي..

وبعد ان تناولنا الشاي خرجت مع رستم بك ومشينا على طريق الصالحية حتى تجاوزنا منازلها ومن هناك انبسط امامنا منظر دمشق، وكانت الشمس قد آذنت بالغروب فكان المنظر بهيجا جدا. انا انني افضل مناظر القدس عليها ولا سيما اذا وقفت على طريق جبل الزيتون بالقرب من منزل الخالق فانك تطل هناك على جبال واودية ومنخفضات ومرتفعات تأخذ بمجامع القلوب، اذا في ربي ان اسكن دمشق فانى اختار منزلا في الصالحية لان ذلك اسكن قسمتي «دمشق اجمل اقسامها منظرا واجمعها للنشراح».. رجعت الى غرفتي وصدري مفعم بالانفعالات والعواطف والحنين الى احبائي والى بلادي ولكن الخيرة في الواقع ولا حول ولا قوة الا بالله».

كان الساكيني عقلية فذة وحرة ومن يقرأ مذكراته عن امريكا التي زارها في زمن الازمة الاقتصادية يجد مقارنة مع ما يحدث الان من ازمة عالمية هناك وهناك. الخالدي والساكيني لم يكونا وحدهما من كتب عن القدس فهناك بحر من الكلمات عنها وهمشيتها الدينية والسياسية والثقافية. لكن عندما كتبا عنها كانت القدس بلا منازع عاصمة فلسطين الثقافية والسياسية فيها تصنع القرارات و«الاولويات» وكانت القدس مركز الحداثة ومركز الحجيج.

المقادسة

هذه الامور عادت، حضرت او احضرت اثناء قراءة الكتاب الجديد الصادر عن دار «الرمال» للنشر في قبرص بعنوان «المقادسة: ذاكرة حية» للسياسي حازم زكي نسيبة، وفيه وهو السياسي الذي عمل في اكثر من موقع في الحكومة الاردنية وعاصر احداثا مهمة في المنطقة منذ النكبة وحتى تقاعده من العمل السياسي والدبلوماسي يقدم روايته او تكريائه التاريخي والتقليدي الذي يجعله الفلسطينيون ابناء المدينة او جوارها انتسابا بالولادة او تبركا بالولاء اليها، فالمقادسة الحنابلة من ابناء جبل نابلس حملوا الاسم معهم الى منافيهم في دمشق والصالحية هربا من عكس ال